تأثير المرأة في الجانب الاجتماعي والسياسي في روايات إبراهيم الكوني

The influence of women on the social and political side in Ibrahim Al-Koni's novels

م.د. خالد مهدي صالح
الجامعة العراقية/ كلية الآداب
Dr. Khaled Mahdi Saleh
Aliraqia University / College of Arts
البريد الألكتروني الجامعي
Khalid.mahdi.salih@aliraqia.edu.iq

مؤتمر اللغة العربية الثاني

ملخص البحث

يُعد الأديب الليبي إبراهيم الكوني أحد أبرز الروائيين الذين كرسوا أعمالهم لاستكشاف عالم الطوارق في الصحراء الليبية، مع تركيز خاص على دور المرأة الطارقية في تشكيل البنية الاجتماعية والسياسية لمجتمعها. تبرز المرأة في أعمال الكوني ككيان متعدد الأبعاد، يجمع بين الأسطورة والواقع، بين القوة والهشاشة، وبين التأثير الروحي والسلطة المادية.

Abstract

Libyan author Ibrahim Al-Koni is one of the most prominent novelists who have dedicated their works to exploring the world of the Tuareg people in the Libyan desert, with a particular focus on the role of Tuareg women in shaping the social and political structure of their society. Women appear in Al-Koni's works as

multidimensional entities, combining myth and reality, strength and fragility, and spiritual influence and material power.

الكلمات المفتاحية
Keywords

تفاعل interaction
تشكيل formation
طقوس ritual
تراث heritage
دلالات Semantics
المجتمع الطوارقي Tuareg society

يتميز نتاج إبراهيم الكوني الروائي بحضور لافت للمرأة، مما يشير إلى أن بناء الرواية عنده يقوم على تأسيس دور فاعل لها، يمتد ليشمل الجانبين الاجتماعي والسياسي. فالمرأة في أعماله ليست مجرد شخصية ثانوية، بل تُصوَّر كعنصر محوري في التشكيل الحياتي، خاصة في التنظيم القبلي الذي يتحكم في علاقات القبيلة الداخلية والخارجية. كما يبرز دورها الاجتماعي في رسم ملامح الحياة الطارقية، حيث يبدو أن الكوني يسعى من خلالها إلى تأسيس عالم صحراوي متكامل.

تركز روايات الكوني على الجانب الاجتماعي كمدخل لإبراز دور المرأة في الكشف عن طبيعة المجتمع الصحراوي. فطرحه يعكس الواقع بدقة، دون مبالغة تُخرج المرأة عن مكانتها الطبيعية. فالعادات والتقاليد جعلت منها شريكًا فاعلًا في مختلف جوانب الحياة، حتى أن ظاهرة "لثام الرجل" تثير تساؤلات حول أصولها وأحقية المرأة فيها.

لا يُستهان بدور المرأة في هذا المجتمع الذي تتنوع فيه العادات، وقد يكون بعضها خارجًا عن المألوف. حضورها في الرواية يتميز بالجرأة والوضوح، حتى في المواقف الأكثر حساسية. فهي النصف الذي تُبنى عليه قوانين المجتمع وأسسه، وهو ما انعكس بوضوح في كتابات الكوني، حيث خصص لها مساحةً واضحة في بيئة صحراوية قاسية.كما أن حضورها في الرواية له سمة مهمة إذ تحاول إضاءة تجربتها دون مواربة أو خجل حتى في أدق المواقف وأكثرها حرجاً[1]. ولا يختلف اثنان عن دور المرأة وحضورها في المجتمع فهي

[1] ينظر المرأة العربية والبحث عن الذات : قراءة في نماذج روائية نسوية، غادة محمود خليل، الحوار مع الذات ، أوراق المؤتمر العلمي الثامن، جامعة فيلادلفيا ،2003، ، ص591.

النصف الثاني الذي به ومن خلاله تتركب قوانينه وأسسه، لقد انعكس هذا الحضور بوضوح في أعمال الروائي إبراهيم الكوني، حيث حرص على تخصيص مساحة للشخصية النسائية في رواياته، بهدف إبراز دورها في بيئة قاسية تعصف بها الأزمات وتقلبات الحياة. فقد صوَّر دور المرأة بوعي دقيق، دون أن ينتقص من أي عنصر قد يُنسب إليها، وهو إنجاز يُحسب له في تشكيل عالمه الروائي "فالمرأة الطارقية تشارك بدور فعال في المناسبات والأفراح فتخالط الرجال وتغني معهم وتطلق الزغاريد والأهازيج وهي تنظم الشعر أكثر من الرجل وتتمتع بأسلوب خاص في النظم والإنشاد وطريقة خاصة في التعبير عن ذلك كما تختص بالعزف على الآلة الموسيقية الوترية المعروف لدى الطوارق باسم (أمزاد)."[2] وهذا التشكيل المتنوع الذي يظهر إسهامات المرأة يجرنا نحو القول إن الشمولية الاجتماعية التي تشغلها المرأة هي محطات تقف عندها وترسم من خلالها المراكز المهمة التي تتوخها في حضورها المطلوب، وربما يكون هناك أمر آخر غير ظاهر للعيان لكنه ظاهر بشكل أو بآخر لا يقرب من الندية مع الرجل، لكنه يقرب من التفاعل المندمج مع شخصية الرجل الطارقي الذي حاول مراراً أن يفتح لثامه قليلاً كي يظهر لنا جانباً من جوانب شخصيته "تجمعت النساء عند البئر العتيق بمجرد أن أشيع الخبر جلبن معهن الطبول والدفوف وآلات الموسيقى وسرعان ما أقبل الرجال أيضا يتبخترون بعمامتهم الكبيرة تحلقوا حول النساء في دائرة واسعة أقبل الأطفال أيضا، وقفوا بعيداً في طابور طويل يراقبون طقوس تخلص القمر من أعدائه وإعادته إلى أهل الأرض،ساحرا،ساطعا،لامعا بالأضواء واعدا بالأسرار".[3] هذا الطقس الطارقي عمد إليه إبراهيم الكوني كي يقول لنا هذه هي المرأة الطارقية التي تتساءلون عنها فهي تتمتع في هذا المجتمع بمكانة اجتماعية عالية وبقدر من الحرية يندر وجود مثلها في المجتمعات العربية البدوية، فهي تخالط الرجال بخاصة في الأسمار والحفلات.وهذه المكانة العالية التي تحظى بها المرأة دفعتنا إلى "الاعتقاد بأن مجتمع الطوارق أممي في جوهره"[4] لكن ذلك قد يصدق فقط على الطوارق الذين يعيشون في أعماق الصحراء في دول أفريقيا، حيث كان الرجل لا يرث أباه وإنما يرث خاله كما أن الرئاسة تنتقل إلى ابن الأخت وليس إلى الابن وغال الطوارق في التعلق بالمرأة حتى جعلوا لها عبادة وهو مبدأ لا نجد له تجليا كما نجده في عالم الطوارق، فالمرأة في ممارستهم اليومية ليست أما أو أختا أو معشوقة وحسب ولكنها أكثر من ذلك، فنشاطها من البداية إلى النهاية طقس مقدس، ليس نشاطها وحسب ، ولكن إيماءها وأهواءها، ونواياها، والكلم على لسانها فكانت المرأة تغني الأشعار أيضا في محافل طقسية إشباعا لحاجة دينية عميقة أي أن الأشعار كانت تؤدي وظيفة دينية، وهكذا وجدت نفسها ساحرة القبيلة، وشاعرة القبيلة، فكان من الطبيعي أن تجد نفسها في يوم آخر كاهنة القبيلة، ومازلنا نجد المرأة في مجتمع الطوارق تذهب لتهجع على قبور الأسلاف لتستجدي من

[2] القضايا الاجتماعية في الروية الليبية، أحمد محمد الشيلابي ، دار النشر – مصراته ، ط 3– –ص189.

[3] رباعية الخسوف :(البئر) إبراهيم الكوني، دار النشر–مصراته ، ط الثالثة ، ص9.

[4] دراسات انثربولوجية في المجتمع الليبي أحمد أبو زيد ، دار نشر الثقافة –الإسكندرية ،مصر،د.ت –ص59.

أضرحتهم النبوءة ومازالت تستحضر أهل الغيب في الأخبية الملفوفة بالظلمات، ومازالت أيضا تبتدع الحيل السحرية وتتقن في مزج الأخلاط الغريبة لتستعين بها في كشف ظلمة الغيب في الليالي التي يستوي فيها القمر بدرا[5]. وهذا ليس من باب الأسطورة الذي تتشكل من تاريخ صحيح، ومن ثمّ يُطعم على مر السنين والدهور بأخبار لا يقبلها العقل الحديث، ولكنه من باب طموحات تلك الأمة ومعتقداتها واهتماماتها[6]. فالمرأة في المجتمع الطارقي ليست مجرد أم أو أخت أو حبيبة، بل هي أيضًا شاعرة وساحرة وكاهنة، تتدخل في الشؤون الدينية والروحية. فطقوسها وأشعارها ليست مجرد تراث أسطوري، بل تعبير عن معتقدات وطموحات ذلك المجتمع. وهكذا، يقدم الكوني صورةً للمرأة الطارقية تختلف عن النمط البدوي التقليدي، حيث تتمتع بحريةٍ نادرة ومكانةٍ تثير الدهشة.

الجانب الاجتماعي للمرأة

تتمتع المرأة في المجتمع الطارقي بحضورٍ لافت لا يقتصر على تعزيز مكانتها فحسب، بل يمتد ليجعلها محوراً للعديد من المواقف الحاسمة. فهي تعبّر عن رأيها في الرجل بصراحةٍ وحرية، مما يمنح فضاء الرواية حيويةً تتناسب مع دورها الفاعل. وتبرز مكانتها بوضوحٍ في البيئة الصحراوية، حيث تكون أكثر ارتباطاً بالحياة اليومية، وأقدرَ على توثيق الوجود الاجتماعي البدوي وتلبية احتياجاته المتغيرة، فمثلا تبدو المرأة دائما في الشعر الجاهلي بوصفها(العاذل)الذي يحول دون إقدام الشاعرات وإقباله على الوجود للموت[7] وفي رواية البئر يظهرها إبراهيم الكوني وكأن لها بهذه السمة حضور الرجل "أرجو أن تكون قد حضرت لنا مهرجانا ممتعا يا شيخ خليل لقد شبعنا من الزغاريد والطبول والمزامير في غات ولا أعتقد أن حناجر نساءنا يمكن أن تنافس حناجر نساء غات قوة وصفاء نريد أن نحتفل بالشيخ أخواد بمهرجان يليق بمقامه"[8] في هذا النص يفتح إبراهيم الكوني الباب الاجتماعي على مصراعيه ويحاول رسم كل ما يريده بتقنية عين الكامرة بحيث لا يترك شي يمنحه الصورة التي يريد إظهارها ومن ثم إعادة نتاجها بكيفية تسمح له الاستمرار في مزاولة لعبته الفنية القائمة على سمة ايجابية يكررها دائما، لاسيما حين يجعل للمرأة الدور الأبرز في توحيد القبائل وهذا أمر نجد فيه الواقعية قائمة دون مبالغة يمكن وصفها بما أراد "لا نزف أحدا غيرك لقد اتفقنا البارحة على أن نزوجك بصبية من قبيلتنا حتى تسهم في توحيد القبائل ألا تذكر اتفاقنا "[9]هذا التوحيد يمكن أن يؤتي أكله حين نقف على أرض الواقع، فالمصاهرات عامل مهم في ربط الناس بعضهم مع بعض، لاسيما حينما يكون الدم هو الحاضر والمتفق عليه في تثبيت نسب الأواصر التي تكون مركزا للقوة والثبات القبلي أي أن

---

[5] ينظر: بيان في لغة اللاهوت إبراهيم الكوني –(أرباب الأوطان2)– دار النشر–ليبيا: –ط الثانية –ج–الثالث،ص46–47.

[6] ينظر: الآداب المقارنة، محمد ألتنوجي، دار الجيل – بيروت، ط 1، 1995 م ، ص 69.

[7] ينظر ملحمة الحدود القصوى :المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني سعيد الغانمي ،المركز الثقافي العربي ،المملكة المغربية ،الدار البيضاء ط الأولى، 2000م ،ص29.

[8] (البئر) إبراهيم الكوني: –ص127–173

[9] المصدر نفسه، ص181.

"الزواج عندهم يتم داخل عشيرة الزوجة، فعلى الزوج أن ينتقل إلى بيت أهل زوجته ليعيش معهم مدة عام كامل على الأقل، أن لم يسكن معهم بصفة دائمة، كما أن المرأة أذا مات زوجها تنتقل للإقامة مع عشيرتها، وتأخذ أولادها معها"[10]. وهكذا يتكفل إبراهيم الكوني بعرض كل الصفات التي يمكن لها أن تحضر عند المرأة وهذا لا يدلل فقط على براعته في التقاط أهم الجوانب الاجتماعية، بل يدلل أيضا على أن المرأة تجاوزت الحدود المعروفة أو الوظائف التي يمكن أن تقوم بها فهي كما نرى" تتقن العلاج بالأعشاب والمراهم الشعبية"[11].فحين يصل الأمر إلى إظهار معرفتها بطب الأعشاب فإنه يرسخ بذلك أمراً يبدو أنه غائب عن حيز الواحة وهو البحث عن وظائف المرأة "وها هو يقضي الأسبوع الربع راقداً على بطنه وأمه الزنجية لا تكف عن دهن ظهره المسلوخ بلسعات السوط الشرس، بالزيوت والمراهم والأعشاب البرية، تمارس هذا العمل في نشاط وبيدين مشفقتين ، مرتعشتين، حنونتين الأصابع أنفسها واليدان اللتان تعودتا أن تدلقا على رأسه جردل الماء البارد فجر كل يوم–وكلما تذكر آيس لسعات الماء البارد في الصباح حمد الله على المرض الذي أنقده من العذاب وازداد يقينا أن لسعات السوط مهما كانت وحشية هي أهون من لسعات، ماء الصباح الباكر المثلج"[12] هاتان اليدان المرتعشتان لا تكتفيان بالعلاج الجسدي، بل تحملان دلالاتٍ عاطفية واجتماعية عميقة، وكأن كل حركةٍ منهما "تُكتب" كلماتٍ في سرديةٍ لا تنتهي عن دور المرأة كـ"نصٍّ مفتوح" في صحراءٍ تبدو للوهلة الأولى مقفرة، لكنها تعج بحضورها الذي لا يُحد.

وتظهر مهارة المرأة في فنون القول فهي تنظم الشعر وتقوله في جميع الأغراض من مدح وهجاء وغير ذلك من الأغراض، فهي تتقنه ببارعة واستدراك مما يدل على ذكائها وفطنتها وموهبتها في هذه الأرض المقفرة تقوله بلغة جميلة فصيحة وإيقاعاً موسيقياً مترنماً تنسجم فيه التفاعيل والألفاظ داخل القصيدة الشعرية الجميلة وهذا ما يتسم به مكنونها من كوامن سحرية شعرية ويبرز شعرها خاصة في غرض الهجاء فهي تحفظ الكثير من الأغاني والأهازيج الحماسية وهو ما يقال أن"الشيخ غوما لا يفارق الشاي حتى في حضرة المهرجان الجليل ألا تخشى يا شيخنا ألسنة النساء وهجاء الصبايا؟ إن الشاعرات منهن ينتهزن مثل هذه المواقف في نظم قصائد الهجاء فاحذر!"[13]، فالمرأة هنا جعلت الرجل المتلثم يخاف لسانها وشعرها في جميع مواقفه، فهو لا يأتي على أمر إلا وهو متيقن على أن صبايا الصحراء تقدر على تنظيم قصيدة هجاء فيه، فجعلت ذلك الرجل الصحراوي يقع في نفسه هاجس الخوف من شعرها، وكذلك لا تخفي مهارتها وتفننها الشعري في مدح الرجال النبلاء في هذه الصحراء بما قاموا به من انتصارات وأمجاد على الفرنسيين في حربهم الضروس، وكذالك يرثن أبناؤهن الذين ماتوا من الحشرات السامة والعقارب، وأتقنن قصائد الأهازيج والمدح والموشحات.

---

2 دراسات انتروبولوجية في المجتمع الليبي أحمد أبو زيد ، ص57–58.

[11] الصحراء الكبرى جورج غير ستر: –ترجمة خيري حماد،المكتب التجاري للطباعة والنشر 1961م–ص226.

[12]رباعية الخسوف (الواحة) إبراهيم الكوني ،مصراتة ، ط الثالثة ، ص 25.

[13] (البئر إبراهيم الكوني)– ص178

ونظراً لهذه المكانة التي تتمتع بها المرأة يسعى الرجال الطوارق لكسب رضاها ونيل إعجابها، حتى إن أحد الباحثين ذهب إلى أن الطوارق كثيراً ما كانوا"يقومون بغزوات فقط من أجل إثارة إعجاب النساء وجلب الحلي واللباس لهن"[14] وبذلك تتضح المكانة المتميزة التي تحظى بها المرأة في مجتمع المتلثمين.

تعود المكانة الاستثنائية للمرأة في المجتمع الطارقي إلى جذور عميقة في الموروث الأسطوري والتاريخي لهذا المجتمع. فإحدى الأساطير المؤسسة تروي أن الطوارق ينحدرون من سلالة امرأة تدعى "تانس"[15]هذا الأصل في هذا النص يوضح لنا أهمية المرأة في الطوارق من أن أصلها أسطوري وتاريخي وتأتي أهميتها وذكرها في رواية إبراهيم الكوني في نص روائي وهو "أنه لم يعرف أما ولا جدة ولا عمة ولا خالة حقيقية حتى (خالته) الزنجية يعرف أنه ليست خالته، ولذلك يحسد الصغار من أبناء الجيران الذين تضج بيوتهم بأصوات النساء وضحكاتهن:أمهات،أخوات،عمات،جدات،بنات خالات بنات عمات بنات أعمام ...قريبات..."[16].

ولما كان الطوارق ينتسبون إلى امرأة، لا إلى رجل مثلما هو شائع في النظام البطريكي الأبوي، السائد في جميع المجتمعات العربية لذلك هم يعلون من مكانة

المرأة، ويرفعون من شأنها ويعتبر مركز المرأة الطارقية فريداً من نوعه في العالم

الصحراوي الإسلامي "فالمرأة بخلاف الرجل لا تتحجب، وهي لا تسمح بوجود امرأة أخرى في المنزل،ولهذا فجميع الطوارق لا يتزوجون بأكثر من واحدة وإذا أحست الطارقية بأن معاملتها قد أسيئت كان في وسعها أن تطلب الطلاق"[17].

ويجعل إبراهيم الكوني موقف المرأة حاضراً في جميع الأمور فهو لا تقل عاطفة عن الرجل، إذ يصور مشاركة المرأة للرجل في روايتي (البئر،والواحة) في كل ما يتعلق بالحزن، حتى في استقبال المعزين "جاء الشيخ خليل وتصدر حلقة الرجال بجوار أخنوخن في الخيمة التي نصبت خصيصا لتلقي التعازي في حين تزاحمت النساء في الخيمة الأخرى ولكن الصمت الشامل استمر يوحي بالموت ويخبئ الفجيعة ويخفى ألما مكتوما على أولئك الذين غابوا ولن يعودوا"[18] فهي تشارك في التعازي، وتستقبل المعزين في خيمة مجاورة للرجال وهي تشعر بالألم ومرارة الفراق والحزن على أبنائها الذين غابوا ولن يعودوا، فمكانتها تبدو واضحة حتى في أماكن العزاء فهي النصف الثاني للرجل وعليها يبدأ أسسه الصحراوي وتظهر مشاركتها له بشكل واضح عندما "امتدت الجموع حتى اكتظت في ساحة السوق التي فاضت أيضا بالناس من أطفال ورجال ونساء وحتى العجزة وذوو العاهات من ألعمي والعرج والمقعدون وجدوا حيلة يهتدون بها إلى الطريق ففاضت ساحة السوق فصدرت جموع البشر إلى الشوارع الصغيرة المؤدية إلى طوابير البيوت الطينية التي تطوق

---

[14] الطوارق فرسان الصحراء هارتمون لانع: –مجلة الفصول الأربعة،العد9، السنة الثالثة –مارس1980م–ص.27

[15] (البئر)–إبراهيم الكوني:ص47.

[16] المصدر نفسه ، ص47.

[17] الصحراء الكبرى جورج غير ستر، ص296.

[18] (البئر) :إبراهيم الكوني –ص165.

الجبل تحرك موكب الجنازة نحو المقبرة قبل غروب الشمس"[19] فالمرأة حاضرة حتى في مواكب الجنائز ورسوم الموتى، فتقوم بالمشاركة معهم في الدفن فهي لا تختلف عن الرجل في شيء من أمور القبيلة الاجتماعية وهذا ما يدل على مكانة المرأة المهمة في هذه الصحراء القاحلة.

ونرى سر معرفتها لمهنة التكهن والشعوذة والسحر حاضرة في رواية (الواحة) وهي أنها "أقسمت هذه المرأة بكل ألهتها أنها لن توقف سطوتها عليه إلا إذا أعلن أمام الجميع يوم الجمعة في ساحة السوق عن استعداده لأن يتخذها زوجة له، محاولاته ولم يجد مهمدو سبيلاً للتخلص من هذه الورطة إلا الرضوخ بعد أن فشلت في استعمال علومه المتواضعة في السحر، لأن أكثر من محترف لهذا الفن في تمبكتو نصحه أن يتمثل لأوامرها إذا أراد النجاة، لأنه ليس هناك أحد بوسعه أن ينقذه منها طالما لا يوجد لها منافس في المهنة لا في المدينة ولا في الصحارى المجاورة"[20] لكن الأكثر إثارةً هو تحوّل هذه الشخصية النسائية في رواية "الواحة" إلى قوة غيبية لا تُقهَر، تفرض إرادتها عبر تخصصها في "مهنة التكهن والشعوذة والسحر". فالمرأة هنا لا تمارس السحر كمهنة هامشية، بل تصل إلى درجة الإتقان.

في المجتمع الطارقي، تمثل المرأة حارسة الذاكرة الثقافية والنسيج الاجتماعي، حيث تتداخل ثقافتها الخاصة مع الموروث الجمعي في محاولة لإعادة تشكيل البنية القبلية التي بدأت بالتفكك تحت ضغوط التحولات الاقتصادية. يبرز هذا الدور جلياً في الأبيات الشعرية التي تنظمها النساء لمواجهة ظاهرة هجرة الرجال بحثاً عن الرزق "وسبق للشيخ غوما أن سمع بعض الأبيات الجارحة من قصائد الهجاء التي نظمتها فتيات القبيلة ونزحوا إلى المدن للبحث عن الخبز !وردت في هذه الأبيات –التي لم يستطيع أن يحفظ منها شيئا–عبارات قاسية صاغتها فتاة موهوبة تلسع حبيبها الذي أجل الزواج منها لكي يعود بالمهر ومصاريف العرس من البلاد البعيدة فطال به المقام هناك وندرت أخباره حتى انقطعت نهائياً مما جعل الفتاة تنبري لتجريحه فتعيره بأنه فضل أكل اللحم على الإيفاء بوعده"[21] هذا النموذج يقدم صورة للمرأة الطارقية لا كمجرد حافظة للتراث، بل كمبدعة قادرة على توظيف هذا التراث في مواجهة التحديات المعاصرة، مع الحفاظ على دورها المحوري في الحفاظ على هوية المجتمع الطارقي، وهي نظرة تسمح بإيجاد عتبات نصية يكون تجاوزها حلاً مؤقتا كونها تبحث عن أسس تجدها هي الداعم لبقائها بجانب الرجل، فالتملص من الجانب الاقتصادي حركة فيها مراوغة تحاول من خلالها إظهار قيمتها الجمالية والثقافية في نظر الرجل هذا من جانب ومن جانب آخر هو البحث عن حل بديل يكون قريباً من مركز حياتها وهو بطبيعة الحال يرتبط بأسباب المعيشة التي تشكل هماً حياتياً ملازماً للمرأة والرجل ، أما بخصوص الأبيات الشعرية فهي محاولة

[19] (الواحة) : إبراهيم الكوني –ص206.
[20](الواحة) : إبراهيم الكوني، ص190.
[21] المصدر نفسه ، ص47–48.

منها لإيصال رسالتها لرجل بطريقة تظهر من خلال ثقافتها التي من خلالها يكون للمرأة نظرة جديدة تحسب لها في تحويل الأزمة إلى فرصة لإثبات حضورها الفكري.

الجانب السياسي

في رواية "البئر"، يقدم إبراهيم الكوني صورةً استثنائيةً للمرأة الطارقية كقائدة سياسية وعسكرية فذة، تتفوق على الرجل في الشجاعة والقيادة، بل وتسلب منه أدواره التقليدية لتقلب موازين القوة في المجتمع الصحراوي. فبينما يلزم الرجال البيوت ويتلثمون خجلاً، تبرز النساء كمحاربات شرسات يقودن المعارك ويأسِرن الأعداء، كما يتجلى في شخصية الملكة تانس التي أسست إمبراطورية مترامية الأطراف وحكمتها أربعين عاماً "وقد جعلت للنساء سلطة على الرجال الذين لزموا البيوت فتلثموا خجلاً في حين قاتلت النساء وجئن بالأسرى أخضعت الملكة تانس بجيشها القوي الجبار الأمصار والأقطار، الشعوب والقبائل، البعيدة والقريبة، تربعت على عرش الإمبراطورية أربعين عاما"[22] ومن هنا تتضح مكانة المرأة وعظمتها في مقاومة المقاتلين في عالم المتلثمين فهي كذلك تسعى في هذه الصحراء القاسية إلى السطوة على المنصب والعرش، فهذه الصحراء المقفرة جعلت منها امرأة جبارة شجاعة تقاتل وتحارب وتأتي بالأسرى مما يتضح لنا بأنها لها مهارة عالية في القتال بمكانة تجعلها تضع الرجل في الخلف، فحين أنهم (لزموا البيوت وتلثموا خجلا) وهذا ما يظهر لنا في قدرة الملكة تانس في عالم الصحراء وقدرتها على التعمير في الأرض والبنيان مما جعلها مثلا يضرب به في الصحراء وهذا يدل على كنوز المرأة وأسرارها في حياة الصحراء فعندما ماتت أدى موتها إلى موت الصحراء وجفافها وخسوفها بعد أن كانت خضراء مبتهجة يعمها النور من كل أرجائها وبعثت فيها الحياة، فالمرأة هي حياة الصحراء ومبعث أملها ورواية عطشها "فحكمة المرأة البهاء وغاية المرأة الحسناء –الثروة"[23]

في نص الكوني الروائي، تتحول المرأة إلى كون موازٍ للصحراء، تتقاسمان نفس الثنائية العميقة بين القسوة الظاهرة والجمال الكامن. فالكاتب يصوغ علاقة جدلية بين الأنثى والفضاء الصحراوي، حيث يصبح كل منهما مرآة تعكس أسرار الآخر. هذه العلاقة التماثلية لا تقتصر على التشبيه السطحي، بل تنفذ إلى أعماق الفلسفة الوجودية للطوارق.في هذه الرؤية الثنائية المتقنة: القحط الظاهري للمرأة/الصحراء يقابله خصب باطني، الجفاف المرئي يخفي ينابيع للحياة، القسوة الظاهرية تستر عذوبة جوهرية "قالت باتا بعد أن أغدقت على صديقتها بعبارات الإطراء جزاء براعتها في تحضير الشاي ...أنا أرشح آهر الشيخ آهر المرشح الوحيد للمنصب ليس لأنه يمت بقرابة بعيدة حاشا الله ! ولكنه يتمتع بعقل.يبدو غشيما لأول وهلة أنا لا أنفي ذلك ولكنه يخفي في نفسه حكمة لا يمكن أن يخطئها حكيم "[24] فهذا التوجه نحو شخص بعينه فيه توقع في

[22](البئر) : إبراهيم الكوني، ص75.
[23] نزيف الحجر (رواية) : إبراهيم الكوني ، ط الثانية ، ص72.
[24](الواحة) : إبراهيم الكوني ، ص397.

المستقبل ولقد أرادت بذلك هذه المرأة أن تجعل خطابها يفيض بكثير من التساؤلات التي من الممكن أن نطلقها على ذلك الواقع الصحراوي، فالبحث عن رجل بهذه الموصفات هو بحث عن تأسيس نظام سياسي للقبيلة يمنحها ثباتاً وقوة ومنعة، فضلا عن ذالك فهو يؤسس لنسق ينتمي إلى الأنساق التي ظهرت عند القبيلة، ولعل كل ذالك هو البحث عن أطروحات تمهد الاستقرار الدائم، فالحياة الصحراوية بكل تجليتها لا يرسخ فيها مبدأ الاستقرار بكونها تنتمي إلى ثقافة البحث عن عوامل الحياة التي لا تتوفر دائما "لم تعلق تاناد فنهضت تجرجر ثيابها الفضفاضة و تكنس بها العراء لتواصل رحلتها بين الأكواخ محرضة النساء على اختيار آهر مؤكدة أنه الوريث الوحيد الذي يصلح للخلافة فتهامست مع الصديقات وتبادلت وجهات النظر مع الغريبات مقبلة اقتراحها على مختلف الوجوه لترى بنفسها مدى تأثيره على النساء، مكثت يومها في أكواخ الصفة الثالثة في الجهة الجنوبية الغربية لدى عجوز قيل أنها تمت لها بقرابة بعيدة ولم تعد إلى بيتها إلا عقب القيلولة بعد عودة آيس من المدرسة وفي العشية راقبت جيوش المعزين وهم يتقاطرون على خيمة الشيخ فاختارت صفة الأكواخ الثانية للتباحث مع النسوة في المرشح الذي دفعت به لتولي القبيلة وقد قامت باتا بهذا الدور لأنها تعرف مدى خطورة النساء في تكوين قرارات الرجال"[25] تسوق (تاناد)هنا فكرة مرادفة في تثبيت الخط الثاني للحكم أي وجود المرأة خلف الرجل وهي فكرة تكاد تقترب بما هو متوارث في الوعي الجمعي عند الإنسان، فالتاريخ يحدثنا عن اصطفاف المرأة مع الرجل في المشاركة في أمور الحكم وإصدار القرارات المهمة وإن لم تظهر في الواجهة بذالك أرادت"باتا" أن تظهر لنا أمراً مهماً وهو أن أمر الحكم في القبيلة ليس متروكاً للرجال، إذ يبدو أن أنصاف الحلول أو بعضها منتمية إلى آراء الرجال أما باقية ذالك فهو للنساء وهذه سمة ليست اعتراضية وليس من الممكن أن تشكل حاجزاً واضحاً

"إن هذا التشكيل الذي أشارت إليه (باتا) في اختيارات الرجل يعكس تدخلاً تحكمه مصلحة القبيلة، حيث إن المرأة تتأثر بنفس ما يتأثر به الرجل، مما يُكتمل به كل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بطريقة تعكس الواقع المعيش في الصحراء الواسعة. كما أن نظرة المرأة استباقية، تمكنها من قراءة المستقبل بمنهجية تتيح لها رصد السلبيات المحتملة التي قد تظهر في مجتمع القبيلة، وبالتالي تكون اختياراتها لرجل القبيلة متناغمة مع تلك التوقعات. والرجل يستمد شجاعته من المرأة "ولا يجب أن ننسى أن البطولة هي ما يشد المرأة في الرجل بطلا إلا إرضاء للمرأة، ولا تكون المرأة امرأة إلا طلبا لبطولة الرجل!"[26]، فبطولة الرجل وشجاعته وانتصاراته في جميع الحروب يكون هدفه الأول إرضاء المرأة ونيل إعجابها وإظهار نفسه أمامها بطلاً شجاعاً فهي تشاركه في افتخارها بأمجاده وبطولاته ومشاركتها له في حفلات انتصاراته وإعلاء صوتها بالزغاريد والأهازيج أي أنه "في الخارج سمع الطبول تقرع، وتناهى إلى سمعه أصوت النساء وهي تحاول أن

[25] المصدر نفسه ، ص397-398.

[26] بر الخيتعور: إبراهيم الكوني ، دار النشر-ليبيا ، ط الثالثة، ص135 .

تنظم في إنشاد لحن سماوي شجي"[27]، يُبرز هذا الشعر المنظم الشجي مكانة المرأة الراسخة، كما يوضح دورها داخل القبيلة وشؤونها السياسية وقدرتها على اختيار المرشحين لزعامة القبيلة، فهي خبيرة بمن هو الأكفأ والأصلح لإدارة شؤون القبيلة. فتقول:"تاناد شاعرة موهوبة يعرف الجميع بكفاءاتها الشعرية قدمت لباتا خدمة جليلة عندما ساعدتها سراً في نظم إحدى القصائد الهجائية التي تهاجم غوما وتشنع بأسلوبه في الحياة وفي قيادة شؤون القبيلة فزارتها باتا الآن لتزف لها البشرى وتعرف رأيها فيمن يجدر به أن يخلف الشيخ غوما ويتولى بعده أمور القبيلة"[28]، يُظهر إبراهيم الكوني للمرأة دورًا رفيعًا في تنظيم شؤون القبيلة واختيار الأجدر بزعامتها، حيث تفضل أقرب المرشحين إليها، وتستعين بنساء القبيلة، وخاصة الموهوبات في الشعر، مثل (تاناد)، لصياغة قصائد هجاء تُستخدم في تشويه سمعة خصومها من مجلس الشيوخ. وهكذا تُعبر عن رأيها حتى من وراء الستار – ذلك الستار الذي يمثله الرجل – مستخدمةً الشعر الهجائي الجميل لتقويض مكانة القائد الذي ترفضه، وتسعى من وراء ذلك إلى تحقيق غايتها، وهي اختيار شيخ جديد للقبيلة. "المرأة تحكم العالم من وراء قناع اسمه الرجل "[29].

تمتلك المرأة الطارقية ثقافةً تعود إلى أصول متنوعة الحضور، حيث تظهر هذه الثقافة بوضوح في الحديث اليومي، وهو ما نعتبره دليلاً على اهتمامها، حتى لو لم يكن لديها رأيٌ واضحٌ تُطرح به القضايا السياسية كما يتم طرحها في المجالس الرسمية "اقترب من كوخ فرأى مبروكة تنحني فوق التنور وتلتقط رغيفا ناضجا من داخل التنور دون أن تتوقف عن الحديث إلى جارتها الواقفة فوق رأسها تهدهد بين يديها طفلا رضيعا ملفوفا في قماط يحرك يديه ورجليه بعناد محاولا أن يفلت من القيد قالت مبروكة وهي تختطف الرغيف المظفور بالسعف من بين ألسنة اللهب بحركة خبيرة وتلتقي به في الطبق "..قيل أيضا أن الشيخ بعد أن صفح الضابط تلك الصفعة المهينة دخل الحي القديم ولاحق الشيخ الجاروف برصاصتين ولكنه لحسن الحظ لم يصيبه" توقف غوما وراقب المرأتين المنهمكتين في صياغة الأخبار على طرقتيهما ومكث لحظة وراء شجرة التين حائرا"[30]إن الاهتمام بهذه الملاحقة هو اهتمام بالمصير العام الذي يمكن أن تؤول إليه الأمور، فتخوم الحياة تظهر عند المرأة بوعي واضح تحاول أن تبحث عن حلول تكمن فيها كل التطلعات والأماني وبقدر مشروعيتها يكون التفكير فيها وهذه حالة صحية امتلكتها المرأة الصحراوية، فهي بذالك تحاول إزالة حرارة وغبار الصحراء ببرودة نظرتها وعنفوان هاجسها وجمال رغبتها المتطلعة.

سمات المرأة الصحراوية

[27] (الواحة) : إبراهيم الكوني–ص251

[28] المصدر نفسه، ص379.

[29] (نزيف الحجر) :إبراهيم الكوني ، ص10.

[30] (الواحة) : إبراهيم الكوني ، ص279–280.

نقف عند سمات شخصية المرأة بداية من خلال هذه المقولة "إن القدماء عبدوا في الكائنات المبدأ الأنثوي لاعتقادهم أنه المبدأ الوحيد الذي نستطيع أن نثق بقدرته على إنجاب نفسه من نفسه، فقد سوى المرأة انطلاقا من هذا المبدأ وألّهوها كما هو الحال عند الطوارق كمجتمع أموي مازال يضع المرأة في المركز الأول حتى يومنا هذا"[31] فمن هنا تتراءى لنا شخصية المرأة الطارقية المجيدة فهي شاعرة وذكية ورقيقة وطبيبة وعطوفة، فهي امرأة الصحراء الواسعة التي تستأنس بها وتبعث فيها روح الحياة والأمل" فالطوارق يمجدون عظمة الأنثى الطارقية ويقدسونها، لأنها مثلهم الأعلى، فهي التي تقوّم الرجل وتصنع منه فارساً متألقاً، فهو قدر المرأة وهي نصفه الثاني ، فالعذراء الصحراوية هي التي يكمن فيها البهاء والحسن والذكاء، فهي حسناء الصحراء إن المرأة ضمان لأي حياة في الصحراء،ولو لم تكن لما عبدها أجدادنا وقدّسها آباؤنا فالمرأة سر حياتهم في الصحراء وابتهاجهم فيها فهم يتساءلون هل شجن الحسناء مزيفّ ؟هل حنين المرأة كذب؟

–ليس في الصحراء أصدق من حنين المرأة هل تدري لماذا ؟

–لأنها تضع قدميها على الأرض،ومن يضع قدميه على الأرض لا يملك غير الحنين"[32] فالمرأة حكمة الصحراء، وحكمة الرجل، فهي حكيمة وهذه الشخصية الحكيمة تبدو لنا واضحة في النص الروائي وهو أنه "يذكر يومها أنه ذهب إلى شيخ متخصص في كتابه الأحجبة وفار منه بتعويذة حصينة وانطلق إلى عجوز متصوف وحكيم في أمور الدين والقرآن اتفق معه على أن يحفظه آية الكرسي ولم يغادر غات متجها مع المحاربين إلى البيوت إلا بعد أن أثمر تردده على العجوز الوقور بحفظ آية الكرسي مضافاً إليها سورة الفاتحة أيضا ولكن كل جهوده في البحث عن الصرة التي أشارت إليها المرأة الحكيمة أفضت بالفشل حتى اعتقد أن ما أشارت إليها المرأة لم يكن سوى رمز من الرموز التي يتعمد مثل هؤلاء العرّافين أن يلجأ له لمداراة عجزهم الذي لم يعصم الله منه أحدا بما في ذلك العلماء وأهل الحكمة ،فكر طويلا فيما يمكن أن يشير إليه هذا الرمز من معنى دون أن يتوصل إلى نتيجة"[33] فالمرأة هنا تتمثل شخصيتها في إنها رمز من الرموز الحكيمة والخفية التي يصعب عليهم حلها ومعرفتها، فالمرأة في الصحراء لها قدرة خارقة في الحكم والسحر والتمائم وغير ذلك من الأمور المشعوذة التي تكون واضحة في قوله :"بخرتني العجائز بأجناس الأعشاب الجافة ونثرن في وجهي مياه المراهم الخفية ،ولجلجن، فوق رأسي، بتمائم لم يعدن، أنفسهّن يدركن لها معنى؛ لأن القبائل توارثتها عن الأسلاف الأولين مخبوءة في مزودة لسان باد فيه المعنى يوم بادت الأجيال التي دسّت فيه المعنى. خارج الخباء توجّع وتر الحنين بلحن الشجي، وهوت أيدي الصبايا على الجلود المشدودة فوق أعقاب الخشبان، فضجت الطبول بأنساق تحفر

[31] بيان في لغة اللاهوت ،إبراهيم الكوني، أرباب الأوطان ،دار النشر ليبيا ، ط الثالثة،ج الأول ،ص(52 –53).

[32] فتنة الذؤان (رواية)،إبراهيم الكوني،ط الثالثة 1375،دار النشر ليبيا،ص64

[33] الواحة ،إبراهيم الكوني ،ص54.

للأغاني الدروب، ففاض في الجأجئ الوجع، واندفع إلى الدروب أشعار فاجعة"[34] فشخصية المرأة تبدو لنا رمزا من رموز الصحراء التي يصعب فهمها وحل طلاسمها، فقدرتها وتفننها في مهارة التمائم وقولها للحن والشعر الجميل الشجي يصعب على أي امرأة أخرى ليست في الصحراء عمل مثل هذا العمل، فهي تمتلك موهبة قوية في جميع فنونها وكذلك يصفها الكوني بقوله "فهل يصدق وجود مخلوق في الصحراء يستطيع أن ينافس المرأة في الدهاء ؟هل يوجد في الصحارى كلها كائن واحد يستطيع أن يفوق المرأة تصبرا،وتمهلا وتريثا، وطول بال؟"[35] يُصوِّر إبراهيم الكوني المرأةَ في الصحراء القاحلة القاسية بصفات الدهاء والصبر والتمهُّل والتريُّث وطول البال، مما يجعلها رمزًا للتحمُّل والتأقلم. وبفضل هذه الصفات، احتضنتها الصحراء وكافأتها بالاندماج في بيئتها، لكنها عانت الخسوف والحزن عندما فقدتها.

المرأة في الصحراء طلسما لا يمكن فكه ومعرفته" فكل الصبايا الحسان، في العرف الصحراوي،فارعات،ولكنها عوّضت تواضع القامة بالسحر، سحر اللغة والشعر الخفي،في عينيها جرأة لا تليق بعذراء، وفي الوجه الصبياني المستدير شقاوة وتطاول"[36].

يقدم الكوني في هذا النص وصفًا لشخصية المرأة في تلك الصحراء المقفرة، مجسدًا إياها بصفاتٍ فريدة تجعلها مختلفةً عن أي امرأة أخرى قال:"ماذا ستفعل في الصحراء بدون نساء؟كيف ستقهر الوحشية ؟كيف ستقتل الفراغ ؟النساء مخلوقات سحرية حيوانات صغيرة ابتدعها الله خصيصا من ضلوعنا كي نتسلىّ بهين ونتمتّع بوجودهن فكيف تطيق حياة صحراوية خالية منهن ؟

–همس له موسى:

–رقيقات حقا–صغيرات حقا،ولكنهن قاسيات كالوحوش يقدن الرجل إلى جهنم بسلسلة طولها سبعون ذراعا دون أن يدري .النساء لا يعشقن الدراويش لأنهن لا يستطعن أن يصنعن منهم عبيدا كبقية الرجال البلهاء بلع ريقه بصعوبة ثم أكمل بصوت راجف، باك :

–إنهن كالأفاعي :ناعمات، في حين أن لدغتهن قاتلة!انفجر بابا في ضحكة عاصفة سقط لثامه المخطط حتى ذقنه ولكنه استمر يضرب صدره بيده المقطوعة ويقهقه بوحشية لا تناسب الحداد .تبادل الشيوخ نظرات دهشة مال عليه أحدهم وهمس في أذنه باستنكار ولكن القاضي لم يتوقف . في النهاية توقف مسح الدموع بظهر يده

الأخرى وقال بمرح :

–أقسم لكم إنه درويش ظريف .ظريف وحكيم برغم كل شيء!."[37] ومن هنا تبدو لنا شخصية المرأة الصحراوية من جانبين فهي أنسه الذي سيقهر وحشته ويقتل فراغه ويتمتع بوجودها جانبه ولا يطيق الحياة بدونها في

[34] سأسرّ بأمري لخلاّني الفصول (رواية)،إبراهيم الكوني، دار النشر ليبيا، ط الثالثة، ،ص287.

[35] المصدر نفسه،ص 407.

[36] المجوس (رواية)،إبراهيم الكوني، ط الخامسة،دار النشر ليبيا،ص 371.

[37] المجوس،إبراهيم الكوني،ص458–459.

هذه الصحراء فهذا الجانب الأول وهو الإيجابي فهو يصفها بأنها رقيقة صغيرة حنونة، أما الجانب الثاني فهو السلبي لها فهو يقول :أو يصفهن بأنهن قاسيات كالوحوش وكالأفاعي الناعمات التي تكون لدغتهن قاتلة وأنهن سبب دخوله جهنم وأنهن سبب بله الرجل فيجعلنهم عبيدا لهم فهو يفتح لهن باب عظيم من الأوصاف.

تختلق المرأة الطارقية سلسلة من الخرافات أو ما يمكن وصفه بالعناصر الغرائبية، التي تستخدمها كإطار لكل وافد جديد إلى القبيلة. ويبدو أن هذه آلية من آلياتها لإثراء الحياة اليومية بلمسة من الغموض تثير لدى الآخرين موجة من التساؤلات، بل وتفرض عليهم أسئلة حتمية لا مفر من الوقوف عند إجاباتها. ولا سيما تلك الأسئلة التي أثارتها عودة (باتا) ونزولها المفاجئ بالواحة "تذكر غوما الضجة التي صاحبت عودة باتا ونزولها الواحة،فتناقلت النساء الخرافات حول ثراء باتا التي عثرت في آير على قله مليئة بالليرات الذهبية، وأكدت هذه الأقاويل أن باتا تستطيع أن تتمتع بلقب ((أغنى امرأة في الصحراء)) ولكن هذه الأساطير سرعان ما تبددت فاعتقد العقلاء أنها مجرد مبالغات تعوّدت النساء أن تحيط بها كل قادم جديد لتغمره بهالة الغموض اللازمة لإثارة الفضول وشحذ الأذهان لتأليف القصص واختلاف الشائعات التي تسارع ألسنة النساء خاصة الجائعة دائما لترديد مثل هذه القصص الخفية ونشرها بين الأكواخ لتجدد حياة القبيلة ويندهش لها سكان الواحة"[38] إن توظيف الخرافات يمثل آلية تركيبية تستخدمها المرأة لصنع نموذجٍ غائب عن الواقع، أي أنها تسعى لتحقيق مثيلٍ حيٍّ لما تطمح إليه في عالم الأحلام والطموحات. فتتشكل لديها رؤية متكاملة تنبثق من افتراضاتها الذاتية، التي تهدف من خلالها إلى المساهمة في تجسيد هذا المثال، مما يقودنا إلى استنتاج أن المرأة تمتلك مقومات فكرية قادرة على ابتكار مساحة وجودية جديدة تتناسب مع تطلعاتها، حتى لو كان هذا العالم ينتمي إلى مملكة الخيال.

(الإيجاب والسلب) في شخصية المرأة الصحراوية

تظهر المرأة في أعمال إبراهيم الكوني في صورة تثير العديد من التساؤلات حول طبيعة شخصيتها، ويمكن القول إن شخصية المرأة بشكل عام تتسم بالتباين بين الحضور والغياب. أما الحضور المقصود هنا فهو ذلك الذي ينطوي على البحث عن جوهرها، حتى لو بدا ظاهريًا في بعض الأحيان"النساء مخلوقات مجهولة حقا.ولكن الذي فهمته أو قل أحسسته،أنها تميل نحوك.لم تصرح لي طبعا ولكني أدركت ذلك بحدسي.إن التعامل مع النساء لا يمكن أن يكون صحيحا بغير الحدس.خطأك أنك تحاول أن تنتزع من لسانها اعترافا صريحا.إن ذلك يؤذي كبرياءها لن أؤذي كبرياءها بعد ذلك أنني أعلن انسحابي من الساحة"[39] يُثير الأمر دهشة أنَّ الرجل لا يرى كبرياء المرأة سمة سلبية، بل ينظر إليها باعتبارها قيمة إيجابية. فالتجارب المتراكمة في التعامل مع الأنثى تولّد رؤية مغايرة، وربما تكسبه فراسة خاصة تمكّنه من إدراك تلك الجوانب الخفية في

[38] الواحة،إبراهيم الكوني،ص35-36.

[39] الواحة،إبراهيم الكوني ، ص 259 .

شخصيتها. فالكبرياء هنا ليس مجرد سمة عابرة، بل هو لبنة أساسية في تشييد كيان المرأة، ومساحة خصبة تسمح بتشكيل افتراضات متعددة، وربما مراجعات تتيح إعادة تشكيل شخصيتها. وفي النهاية، فإنَّ مهمة توظيف هذه الرؤية في صياغة طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة تظل مهمة ملقاة على عاتق الرجل.

يُقدّم النص الروائي عند الكوني صورة المرأة ضمن أفق واسع يتيح –بل ويمنح– توسعًا في المفاهيم المرتبطة بها. فالصحراء بامتدادها الشاسع يصوغها الروائي بأسلوب فني يخلق ثنائية بارعة، يستثمرها في كشف الفجوة بين الصورة المتخيّلة والحقيقة الراسخة في أذهاننا، والتي تنعكس بدورها على تشكيل شخصية المرأة.

يُقدّم النص الروائي عند الكوني صورة المرأة ضمن أفق واسع يتيح –بل ويمنح– توسعًا في المفاهيم المرتبطة بها. فالصحراء بامتدادها الشاسع يصوغها الروائي بأسلوب فني يخلق ثنائية بارعة، يستثمرها في كشف الفجوة بين الصورة المتخيّلة والحقيقة الراسخة في أذهاننا، والتي تنعكس بدورها على تشكيل شخصية المرأة.

هذه الثنائية تتحول إلى أداة روائية ذكية، تتيح للقارئ استكشاف التناقض بين ما يُتصوّر عن المرأة وبين كينونتها الحقيقية، حيث يصبح الامتداد الصحراوي ليس مجرد خلفية مكانية، وإنما مرآة تعكس أبعادًا أعمق في الشخصية النسائية."هذا صحيح–إن المرأة، يا شيخنا، مثل هذه الصحراء التي تمتد أمامك إلى الأبد تبدو قاحلة، قاسية، باعثة على اليأس ولكن أعماقها تخفي سحرا وأسرارا وكنوزا وحياة، واكتشافها يحتاج إلى الصبر والخبرة هذه حكمة الصحراء وأنت أدرى بها أكثر مني"[40] يُبرع الكوني في نحت ثنائية دلالية عميقة بين المرأة والصحراء، حيث يقدّم الصحراء في ظاهرها كمكان قاحلٍ مثيرٍ لليأس – هذه الصحراء التي أمامك إلى الأبد تبدو قاحلة يائسة – بينما يختزن باطنها – كالمرأة – سحراً وأسراراً وكنوزاً لا تُفتح إلا لمن يغوص في أعماقها. هذا التباين المُتقَصّد ليس مجرد تشبيه عابر، بل هو استراتيجية فنية تكشف عن ثراء الشخصية النسائية وتعدد طبقاتها، فكما تخفي الصحراء في جوفها الحياة رغم سطحها الجاف، تحجب المرأة في أعماقها عالماً من الغموض والإغراء يدعو الرجل لاكتشافه.

بهذا يصوغ الكوني علاقة جدلية بين العنصرين، حيث يصبح الانجذاب نحو المرأة أشبه برحلة استكشافية في صحراء موّارة بالأسرار. فكلاهما – المرأة والصحراء – يتشاركان في صفات الجمال الخفي، والقدرة على التحوّل من حالة اليأس الظاهرية إلى حالة الانبهار بالمكنون. وهذا التشابه ليس اعتباطياً، بل هو اختيار واعٍ يجعل من المرأة والصحراء وجهين متكاملين لحقيقة واحدة: فكلاهما يحمل تناقضاً بين المظهر المخادع والجوهر الثمين، بين القسوة الظاهرة والخصوبة الكامنة.

ويُكرّس الكوني هذه الرؤية عبر تقنيات سردية تختزل المرأة في رمزية الصحراء، لا كمقارنة سطحية، بل كلغة وجودية تعبّر عن صعوبة الوصول إلى الحقيقة، وعن ضرورة المغامرة المعرفية لفكّ شفرات العالم الأنثوي.

1البئر، إبراهيم الكوني،ص180

فكما أن الصحراء لا تمنح كنوزها إلا للمصابرين، تظل المرأة لغزاً يحتاج إلى قارئٍ صبورٍ يفلح في فكّ طلاسمها، وفي الوقت نفسه، تبقى – كالصحراء – قادرةً على تحويل الواقع إلى حلم، والحلم إلى واقع، في دائرة من الجذب والإدهاش لا تنتهي. "هو لن يفعل ذلك طالما بقيت امرأة واحدة تمشي على الأرض بين أيديهم سيتشبث بالحياة طالما هناك واحد في المليون من الأمل.إذ ما معنى الحياة بدون امرأة؟ إنها قاسية، موحشة كالصحراء الكبرى. المرأة هي بلسم الوجود، والدواء الذي يشفى أمراض الروح ويجعل للحياة طعما، الحياة تفقد معناها .نهائيا عندما تختفي منها المرأة تستحق الحياة عندها أن نضع لها حدا من جدارة" [41] يبدو أن هذه المقتطفة الروائية تشكل منعطفاً فنياً مدروساً بعناية، حيث لا يسعى الكوني من خلالها إلى تقويض الثوابت أو طرح بدائل جذرية، بل يقدم صورة المرأة في إطارها الطبيعي المرتبط ببيئتها الصحراوية. فقسوة الصحراء ووحشيتها ليستا مجرد خلفية عرضية، بل عنصران متكرران في النص يقابلهما باستمرار عنصري الحياة والخصوبة، مما يشكل ثنائية عميقة الجذور في المتن الروائي.

ويمكن تبرير هذه الثنائية من خلال المكانة الاجتماعية للمرأة الطارقية التي تفرض عليها تحمل أعباء الحياة القاسية، بينما تحافظ في الوقت ذاته على أنوثتها كعامل جذب يستفز الرجل ويحثه على خوض غمار العلاقة. وهنا تبرز براعة الكوني في توظيف البيئة الجغرافية القاسية كمرآة تعكس صورة المرأة الطارقية بكل تناقضاتها؛ قوتها في مواجهة التحديات، وأناقتها في الحفاظ على أنوثتها.

إن هذا المنهج الثنائي ليس سوى أداة فنية تثري الخطاب الروائي وتعطيه أبعاداً جمالية وفلسفية تسمح باستنطاق الدلالات الكامنة وراء شخصية المرأة. فهي تظهر في النص كرمز متعدد الطبقات، يحيل إلى قراءات مختلفة تتيح للمتلقي الغوص في أعماق الشخصية النسائية الطارقية، واستخلاص ما يروي ظمأه المعرفي والفني.

وبذلك، يصبح النص الروائي ساحة حوار بين الظاهر والباطن، بين القسوة والأنوثة، بين الواقع والرمز، حيث تتحول المرأة الطارقية إلى أيقونة ثقافية تختزل في شخصيتها روح الصحراء وتحدياتها، دون أن تفقد شيئاً من غموضها الساحر أو قوتها المدهشة. هذا التوازن الدقيق بين الأضداد هو ما يجعل الصورة الروائية للمرأة عند الكوني تستحق التأمل والتحليل، باعتبارها نسيجاً فنياً معقداً يجمع بين الواقعية والرمزية في آن واحد.

إن شخصية المرأة تحتل مركزاً وجودياً يُحلق حوله الرجل في ترحاله، لا كوجهة فحسب، بل كقوة جاذبة تُعيد تشكيل مسار رحلته. فالصحراء بامتدادها اللامتناهي – ذلك الفضاء الذي يمنح العين مدىً واسعاً لكنه لا يخضع لعشوائية الريح – تصبح مرآة لهذه العلاقة الجدلية. هنا لا نجد رمالاً متشتتة، بل نظاماً ثنائياً عميقاً

[41] البئر ،إبراهيم الكوني،ص 108.

يعكس طبيعة العلاقة الإنسانية: فالغياب الظاهر للمرأة ليس انمحاء، بل تحولاً إلى حضور دائم في فكر الرجل ووجدانه.

يبلغ هذا التوتر ذروته حين تتحول المرأة إلى عشق يتجاوز المادية، فتصبح غياباتها استعارات لحضور أكثر كثافة. وكما تترك الصحراء – رغم فراغها الظاهري – بصمتها في نفس المسافر، تظل المرأة حاضرة رغم غيابها الجسدي. هذا الانزياح الدلالي بين الحضور والغياب يُظهر براعة الكوني في تحويل العلاقة إلى ميتافيزيقا خاصة، حيث يصبح كل غياب بوابة إلى عمق وجودي، وكل حضور إشارة إلى غياب مؤجل.

فالمرأة عند الكوني ليست مجرد محطة في رحلة الرجل، بل هي البوصلة التي تعيد توجيه فلسفته في الترحال، جاعلة من كل خطوة في الصحراء بحثاً عن معنى، ومن كل غياب حافزا للاكتشاف. وهكذا تتحول الثنائية من مجرد تقابل سطحي إلى حوار وجودي، حيث يعيد الغياب تعريف الحضور، ويصبح الفراغ امتلاء، والبحث ذاته غاية. "شيد وسادة من الرمال واستلقى على ظهره فوق الأديم البارد مغطيا وجهه بلثامه فكر أن يقضي الليلة في الوادي الكبير لكي ينطلق عند الفجر ويذهب إلى الشيخ غوما مباشرة ليكاشفه بالأمر بدأ يغفو وهو يفكر في العزاء العظيم الذي تقدمه المرأة للرجل في الصحراء الكبرى ، وفي صحراء الحياة، خاصة عندما تعشق المرأة"[42] يبدو أن المكاشفة التي يبتغيها الكوني هي محاولة لسدّ الفراغات الوجودية التي تشغلها المرأة في عقل الرجل وروحه، مما يفسر ذلك الحضور النسوي الطاغي في قلب المشهد الصحراوي. فالصحراء – بفراغها الظاهري – لا تتحول إلى فضاء معتم إلا بغيابها، بينما تتحول إلى عالم حيّ بمجرد حضورها الرمزي. هنا تكمن المفارقة: كلما ازداد الفراغ الجغرافي اتساعا، ازداد الحضور الأنثوي عمقا وكثافة.

المرأة هنا ليست مجرد عنصر مكمل، بل هي القوة التي تمنح الفراغ معنى، والغياب حضوراً. فهي تغدق على الرجل – من خلال شخصيتها المتجلية في النص – ما يعيد تشكيل وعيه بالمكان والذات. وكما تملأ الصحراء بصر الناظر بامتدادها الشاسع، تملأ المرأة أفقه الوجودي بأسئلتها وأسرارها. وهذا التبادل بين الفراغ المادي والامتلاء المعنوي يبرز عبقرية الكوني في تحويل العلاقة بين الرجل والمرأة إلى استعارة لأعمق الصراعات الإنسانية: البحث عن المعنى في قلب العدم، واكتشاف الذات من خلال الآخر.

فالحيز النسوي الذي يتصدر المشهد ليس مجرد تمثيل سطحي، بل هو احتلال رمزي لكل المساحات الفارغة في الوعي الذكوري. والمرأة الطارقية – بهذا المعنى – تصبح كائناً كونياً تعيد تشكيل الجغرافية بتأثيرها، وتحول القفر إلى فضاء للحوار بين الأضداد، حيث يصبح كل فراغ إشارة إلى حضورها، وكل حضور منها دعوة لتأمل طبيعة ذلك الفراغ الذي كان – في الأصل – ناتجاً عن غيابها.

تشكل الحكمة جوهر الشخصية النسائية الصحراويةِ عند الكوني، حيث تظهر المرأة ككائن متصالح مع بيئته القاسية، متشبع بحكمتها التي تستمدها من عمق تجربتها الوجودية في أحضان الصحراء "والرجل يستجيب

[42] البئر ،إبراهيم الكوني ، ص 24 .

للنداء في النهاية ويسافر،لأنه لا يستطيع أن يتخيل مدى خوف المرأة من السّفر، فتحاول المسكينة أن تفتنه بالحبّ لتشدّه إلى جوارها، فإن لم تفلح أنجبت له ذمّية، يسمونها وليدا، لتكون له وتدا، فإن لم تفلح احتكمت إلى الخيار الأخير:تدس له السّم في الطعام،أو تتركه حتى ينام وتنحره بالمدية النحاسية. فالمرأة تفرّ من الغول الذي يخرج الرجل في طلبه لأنها تفر من شبح العزلة، في حين لا يسافر الرجل إلا طلبا للعزلة، فهو فارّ من المرأة، من الأنس، من الحياة طلبا للعزلة، والمرأة مخلوق فار من الوحشية، من العزلة، باحث عن الأنس، عن المجتمع، عن الحياة، عن الرجل ولذلك فإن المرأة مخلوق يفوق الرجل حكمة، لأن غايتها الحياة، وغاية الرجل الفرار من الحياة ولذلك فإنها لا تلجأ إلى المبدأ الأخير إلاّ عندما تستنفد كل الحيل وتيأس.وحتى عندما تدس السم في طعام القرين، فإنها لا بد أن تقطع الوريد في يدها لتلحقه،لأن الفقد في عقيدتها مصير أسوأ دائما من الموت"[43] يجسد النص الروائي هنا صورة عميقة للمرأة الصحراوية التي تجمع بين الحكمة الاستثنائية والإخلاص الوجودي. فهي لا تكتفي بتفوقها الروحي والفكري على الرجل، بل ترفض التخلي عنه حتى في اللحظات المصيرية، حيث تختار أن تشاركه مصيره بوعي كامل وإرادة حرة.

في المشهد الأخير، حين تقدم المرأة على قتل الرجل بغمد السكين، ثم تقطع وريدها لتموت معه، لا نجد هنا مجرد فعل انتحاري، بل طقسا وجوديا يصل إلى حد التماهي الروحي. هذا الفعل الذي يبدو عنيفا في ظاهره يحمل في أعماقه لغة حب صوفية، حيث يصبح الموت المشترك ذروة للاتحاد الذي تعجز الحياة عن تحقيقه.

الكوني هنا يقدم رؤية مدهشة للعلاقة بين الجنسين، حيث تتحول الأنثى من مجرد رفيقة درب إلى شريكة مصير، ترفض البقاء عندما يفنى معناها الوجودي (الرجل). هذه النهاية لا تعبر عن هزيمة، بل عن انتصار للإرادة النسائية التي تختار بحكمة أن تكمل دورها حتى النهاية، مؤكدة أن حكمتها ليست في التفوق على الرجل، بل في الوفاء لمعنى يتجاوز كليهما.

بهذا يصوغ الكوني أسطورة معاصرة عن الحب المطلق، حيث تتحول المرأة الصحراوية إلى أيقونة للعطاء اللامشروط، تقدم دروسا في الإخلاص تتجاوز حدود الزمان والمكان، مؤكدة أن الحكمة الحقيقية تكمن في القدرة على اختيار نهاية ذات معنى، حتى لو كان الثمن هو الذات نفسها.

إن المرأة وحدها تستطيع أن تذهب باللّسان إلى حيث تشاء، متى تشاء، وكيف تشاء، المرأة وحدها تستطيع أن تبلغ أبعد أرض، أبعد نيّة، من أقصر طريقة كما تستطيع بنعمة الكلام أن تسافر عكسا، فتنزل أرضا أقرب من حبل الوريد من أبعد طريق، لأن المرأة هي عرّافة اللغة وإلهة الكلام وهنا تكمن شخصية المرأة الصحراوية[44].

[43] فتنة الذؤان،إبراهيم الكوني،ص 121-122.

[44] فتنة الذؤان،إبراهيم الكوني ، ص19.

يقدم إبراهيم الكوني صورة المرأة في بعض أعماله الروائية بتعقيد لا يخلو من تناقض مقصود، فبينما يرفعها إلى مرتبة الحكمة والقداسة أحياناً، لا يتردد في نعتها بأوصاف قاسية مثل سفيهة " لقد وصفتها بتعبير يوما ما راق لي كثيرا قلت إنها(سفيهة) والحق أن تعبيرك أنقذها من السوط وأنقذني أنا من تلوث يدي قلت لنفسي يومها أنه من غير اللائق أن يتحارب الرجل مع السفهاء خاصة إذا كان هذا السفيه امرأة"[45] يبدو أن هذا الانزياح الوصفي في تصوير المرأة عند الكوني – بين السفاهة والحكمة – ليس سقوطاً في التناقض، بل حركة ديناميكية مقصودة عن طبيعة العلاقة المتوترة بين الرجل والمرأة في فضاء الصحراء.فحين يقول"أسوأ ما في المرأة أنها لا تنسى الإساءة لا أنكر أني وعدتها بالزواج يوما ما ولكن بحثي حال دون التنفيذ كنت طائشا وهربت إلى الواحات باحثا عن ((الجوهرة)) بين دفوف الطرق ولم أكن أعلم بالطبع أن هذه((الجوهرة)) في متناول اليد إنها ((هنا)) داخلنا وليس ((هناك)) خارجنا وطبيعي أن أتعرض لحرق الجمر قبل أن أفوز بهذه القناعة البسيطة."[46]

يتجلى حضور المرأة في السرد الكوني من خلال تشكيلات متعددة، تبرز مواقف متنوعة تجعلها غير محصورة في إطار سمات محددة. وهذا يعكس بطبيعة الحال التباين الإنساني، حيث يصورها في بعض المواضع ويبرز مواقفها السلبية بتفصيل واضح "الرجل لن يستطيع مهما فعل أن يقوّم امرأة واحدة، طالما خلقها الله امرأة وليس مخلوقا آخر يمشي على أربع كالدواب أو يزحف على بطنه كالأفعى والحق أن المرأة هي أقرب مخلوقات الله وأكثرها شبها بالأفعى"[47] ولهذا تستدعى العملية الذهنية صورة الأفعى عند ذكر المرأة، فهي التي تأمرت مع شبيهتها الأفعى وأغوت الإنسان النبيل (إذا إنهن استطاعتا بما وهبتا من لؤم أن يتآمرا على آدم نفسه ويدفعها بالإغراء وتزيين الإثم إلى تذوّق التفاحة فحقت عليه اللعنة) فهذا الموقف الذي يعرضه الكوني للمرأة يتمثل في إن الرجل مهما فعل لن يقومها طالما خلقها الله امرأة ويشبهها بأكثر المخلوقات فتكا وهي الأفعى وكذلك يذهب إلى إنها وراء كل ما يصيب الرجل من مصائب فهي أخرجته من الجنة بما زينته له من اغراءات شيطانية وهي حليفة الشيطان ومصاحبة له، فهذا الوصف يمثل شخصية المرأة السلبية وهو كذلك يقول أنه"اجتاز الرابية، فتمدّد العراء المفرش بحجارة متساوية الأحجام، متساوية اللون، متساوية الأوضاع.أجاب العجوز على السؤال بسؤال؟

–ما يدريك أن الحية لم تكن إلاّ الحسناء؟

–الحية هي الحسناء؟

ألم تحدّثني مرّة كيف رأيت حسناء القبيلة المجاورة حيّة في حجرك؟

–حدث هذا حقا:

---

[45] الواحة،إبراهيم الكوني، ص 451.

[46] المصدر نفسه، ص 471.

[47] الواحة،إبراهيم الكوني ، ص 282.

–الحيّة هي الحسناء دائما.

–ولكن لماذا تخلّى عنّي أهل الخفاء أيضا؟

–لا يصير العاشق عاشقا حقيقيا إن لم يبدّل ما بنفسه، ويصبح جنّا. تخلّى عنك أهل الخفاء، لأنك صرت مخلوقا ينتمي إلى ملّة أهل الخفاء"[48] سميت المرأة بالحية لأنّها تكشف عن قرين المرأة الخفيّ، عن روح المرأة التي استلبها الشيطان وإله للشرّ، فسميت شريرة أيضا (ست) لأنها تعكس الوجه الحقيقي للمرأة، الوجه المستلب،الذي تحاول أن تخفيه[49] "قال:قرأت في عينيها يوما ناموس المرأة، ناموس الأنثى ،ناموس الحيّة التي لم تخلق إلاّ لتنتقم،الحيّة التي تنتقم حتى وهي ميتة، لأن الحية، كالمرأة، لا تموت،لأن الحيّة كالمرأة تستعيد الحياة بعد الموت"[50].

يتجسد عالم الصحراء في تصويره لشخصية المرأة بسمات تنتمي إليه، كما يبرز صورة الرجل الصحراوي النبيل الذي يستمد قوته وشموخه منها. فهي تحتل مكانة عظيمة في نفسه، حتى أنه لا يستطيع العيش دونها، لدرجة أن فراقها يدفعه إلى الانتقام والثأر. وكما يقول "غوما"، معبرًا عن موقفه السلبي منها "بل السبب امرأة !اعتقد أن الاعتداء عليه طعنة موجهة لعلاقته بها فقرر الانتقام ليستعيد كرامته أمامها.نعم.حيثما توجد المصائب فثمة رائحة امرأة!

عاد الشيخ خليل يقول:

–ولكن هذا جنون وليس انتقاما لقد فقد عقله حقا ولكن الشيخ غوما همهم كأنه يخاطب نفسه:

–وصلت لهذه القناعة منذ زمن بعيد النساء أصل كل بلاء!"[51] يُبرز إبراهيم الكوني في هذا النص رؤية سلبية تجاه المرأة، حيث يصورها كمصدر للفتنة والصراع، بل ويجعلها أساساً لكل المصائب والنكبات التي لحقت بالقبيلتين، بما أثارته من حروب وخلافات.

إن سلبية المرأة في الرواية يجعله الكوني حقيقة لها حضور في الرواية العربية "لم أصدّق أكذوبتها الجميلة ليقيني بأن المرأة مخلوق لا يقول أبدا ما يريد أن يقول، لأن في المرأة كائنا آخر يتكلم بالإنابة عنها، ويطرح في لسانها أجمل الأكاذيب حتى لو شأت المرأة أن تجري على لسانها أنبل الحقائق لأن الكائن الذي يسكنها يرفض الحقيقة، لأنه كائن من طبيعة معادية لطبيعة الحقيقة،لأنه ينتمي بسليقة إلى سلالات الخفاء لهذا السبب تستمر المرأة في الكذب لهذا السبب لا تستسلم المرأة للرجل الذي تحبّ، ولكن للرجل الذي يكذب، لأنّها لا تستطيع أن تحب الرجل الذي يحب أن تحبّ، لأن الرجل الجدير بالحبّ،عادة، رجل لا يكذب"[52].

---

[48] فتنة الذؤان،إبراهيم الكوني،ص 101.

[49] ينظر بيان في لغة اللاهوت،إبراهيم الكوني،ص198–199.

[50] سأسر بأمري لخلاني ،إبراهيم الكوني،ص 136.

[51] البئر،إبراهيم الكوني،ص 32

[52] سأسر بأمري لخلاني ،إبراهيم الكوني ،ص 409.

يُقدم الكوني المرأة الطوارقية كـ"نص مفتوح" يجسد تناقضات الصحراء: قوةً وضعفًا، حضورًا وغموضًا. دورها ليس ثابتًا بل ديناميكيًا، يتأرجح بين الأسطورة والواقع، بين السلطة والهشاشة. هذا التصوير يعكس رؤية الكوني للأنثى كـ"كنز روائي" و"لغز وجودي" يدفع القارئ لإعادة النظر في أدوار المرأة في المجتمعات البدوية.

المصادر والمراجع

1- الآداب المقارنة، محمد ألتنوجي، دار الجيل – بيروت، ط 1، 1995م.
2- برّ الخيتعور: إبراهيم الكوني –دار النشر–ليبيا ––ط الثالثة –1375.
3- بيان في لغة اللاهوت إبراهيم الكوني –(أرباب الأوطان2)– دار النشر–ليبيا: –ط الثانية .
4- دراسات انثربولوجية في المجتمع الليبي أحمد أبو زيد : – دار نشر الثقافة ،–الإسكندرية ،مصر،د.ت.
5- رباعية الخسوف :(البئر) إبراهيم الكوني: –ط الثالثة ،1428م– دار النشر– مصراته.
6- رباعية الخسوف (الواحة) إبراهيم الكوني – مصراتة – ط الثالثة – 1428هـ.
7- سأسرّ بأمري لخلاّني الفصول (رواية)،إبراهيم الكوني،دار النشر ليبيا ،ط الثالثة.
8- الصحراء الكبرى جورج غير ستر: –ترجمة خيري حماد،المكتب التجاري للطباعة والنشر 1961م.
9- فتنة الذؤان (رواية)،إبراهيم الكوني، دار النشر ليبيا ،ط الثالثة .
10- القضايا الاجتماعية في الروية الليبية ، أحمد محمد الشيلابي – دار النشر–مصرا ته ، ط 3.
11- المجوس (رواية)،إبراهيم الكوني ،دار النشر ليبيا، ط الخامسة.
12- المرأة العربية والبحث عن الذات : قراءة في نماذج روائية نسوية، غادة محمود خليل، الحوار مع الذات ، أوراق المؤتمر العلمي الثامن، جامعة فيلادلفيا ،2003.
13- ملحمة الحدود القصوى المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط الأولى ، 2000م.
14- نزيف الحجر (رواية) : إبراهيم الكوني ، دار النشر ليبيا، ط الثانية .

الدوريات

1-الطوارق فرسان الصحراء هارتمون لانع: –مجلة الفصول الأربعة،العدد 9، السنة الثالثة –مارس1980م.